اللغة الأم

للدكتور عبد العزيز بن عبد الله

ان الجزيرة العربية هى منبثق الحضارات السامية التى كيفت اقاليم الهلال الخصيب وما وراءه اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ولذلك يمكن القول بأن العرب البائدة الارامية التى ترجع الى ارم بن سام بن نوح ومنهم قبائل ابراهيم الخليل هم العرب الاصليون الذين وضعوا لجميع الشعوب السامية لغتهم العربية الام وقد نزحوا حوالى اوائل الالف الثانية قبل الميلاد الى جنوب العراق واستقروا فى مناطق بابل وارتباط الخليل بجزيرة العرب وبالحجاز (اى بيت الله العتيق) لم يرد فى القرآن وحده بل ابرزته الكشوف الاثرية واللسنيات المقارنة حول الهجرات السامية .

ويرى المؤرخون العرب ان الاراميين من اصل واحد مع العرب البائدة او العرب العاربة ويؤكد ذلك ما ورد من ان الملك الاشورى اسرحدون (668 ــ 625 ق . م .) يشير فى كتاباته الى ان حزائيل ملك العربى اى العرب جاء خاضعا الى نينوى (1) وحزائيل اسم ارامى كما ذكر الدكتور هوميل ان الاراميين والعرب من عنصر واحد (2)

وقد تغلغلت اللغة الارامية فيما بين النهرين وفارس ووادى النيل وآسيا الصغرى وشمال جزيرة العرب حتى حدود الحجاز وبقيت اللغة الرسمية

---

1) Rogers, Cuneiform Parallels etc... p. 353

2) F. Hommel, «The Ancient Hebrew Tradition p 202

كتاب التقاليد العبرية القديمة

ولاحظ كروهمان ايضا فى بحثه عن تاريخ العرب ان الاراميين هم اسلاف العرب .

Encyclopedia of Islam N.E. p. 524

(دائرة المعارف الاسلامية ــ الطبعة الجديدة ص 524)

طوال قرون قبل الميلاد فى بابل وآشور وفارس ومصر والشام وبها كتب الانجيل على الارجح وقد قامت الارامية محل الكنعانية وظلت اللغة السائدة فى القرن السابع ق . م . حيث اخذت العربية تحل محلها وعزز الاستاذ دايرنجر (3) هذه النظرية مؤكدا سيادة اللغة الارامية من مصر الى آسيا الصغرى الى الهند وقد ابرز كروهمان علاقة الاراميين وقبائل « العبيرو » بالعرب قائلا :

« ومن المؤكد ان العنصر البدوى فى شبه جزيرة العرب وهو على الارجح مصطلح مرادف مع تسمية آرام وعبيرو وخبيرو وجد فى الاصل فى المنطقة التى تمتد بين سورية وبلاد ما بين النهرين والتى تعد اقدم مركز للساميين (4)

وكانت القبائل العربية التى نزحت من الجزيرة العربية تتكلم كلها لغة واحدة هى العربية الاصلية التى تفرعت الى لهجات احتفظت بخصائصها وسميت باللهجات او اللغات السامية تمييزا لها عن اللغات الآرية والطورانية ومن مميزات اللغة السامية اصولها الثلاثية الاحرف واشتقاقها الناتج عن مجرد تغيير الحركات .

ولم يعد هنالك ريب بعد الحفريات والكشوف الاثرية ان عصر ابراهيم الخليل وهو بداية الالف الرابعة قبل العصر الحاضر (القرن التاسع عشر قبل الميلاد) هو عصر عربى لغته هى السامية العربية الام فقد انبثق الجفاف الشديد الذى اكتسح شبه جزيرة العرب عن سلسلة من الهجرات نقلت الكنعانيين والفينيقيين والعموريين العمالقة منذ ازيد من الف عام قبل عصر الخليل وقد لخص الدكتور احمد سوسة (5) فى هذه المعطيات مبرزا تفرعات اللغة السامية العربية الام الى لهجات قسمها اللسنيون الى مجموعات هى السامية الغربية بعناصرها الكنعانية والفينيقية والمؤابية والعبرانية والسامية الغربية الشمالية (العمورية والارامية) والسامية الشرقية (الاكدية البابلية والاشورية) واخيرا لهجات جنوبى الجزيرة العربية وهى المعينية والسبئية والاثيوبية والعربية والامهرية والذى يدل دلالة واضحة فى نظر الكثير من خبراء اللغة واللسنيات على ان العربية هى اللغة الاصلية اى لغة بدو الجزيرة العربية ما زالت الى الآن اقرب كل اللهجات المذكورة الى اللغة السامية الام .

وتعتبر هجرة الاكديين نحو الفرات فى العراق اقدم هجرة من هجرات الساميين العرب الذين انتقلوا من الجزيرة العربية الى ضفاف الفرات وقد نزحت ــ كما قلنا ــ جماعات اخرى من جزيرة العرب الى وادى النيل فى حدود الالف الرابعة قبل الميلاد ويقال بأنها حملت معها حضارة أرقى من حضارة مصر وهى التى جاءت بفن التحنيط والكتابة الهيروغليفية (6) التى يكون اصلها ايضا عربيا مثل الكتابة الكنعانية وعمموا لغتهم مطبوعة بالطابع العربى كما يتجلى ذلك من النقوش المصرية القديمة (7) منها صورة ملونة لاسرة عربية مهاجرة من جزيرة العرب والعموريون العمالقة هم الذين اسسوا الانبراطورية البابلية القديمة (وهى ثانى امبراطورية سامية وقبلها الاكدية) بعد ان نزحوا من جزيره العرب منتشرين فى الشام ومن بينهم ملوكهم وفى طليعتهم حمورابى وهو الملك السادس الذى حكم 42 سنة بين 1792 و 1750 ق . م . وهو صاحب التشريع المشهور الذى يقال بأنه وضع اصالة باللغة العربية .

وقد اقام الاشوريون ثانى امبراطورية سامية وبينما اتجه الكنعانيون والعموريون والاراميون والاكديون والهكسوس نحو الشام والعراق ومصر مستهدفا بعضهم الفرات ــ اتجهت الى دجلة قبائل اخرى حوالى اواخر الالف الرابعة او اوائل الالف الثالثة قبل الميلاد شمالى العراق على يمين دجلة فاسست مدينة اشور وهى عاصمة امارة صغيرة على نسق دويلات المدن الاكدية جنوبى العراق وقد تكلم الاشوريون بلغة سامية قريبة من لغة الاكديين جنوبا وكتبوا بالخط

3) D. Diringer the Alphabet 1948 p. 253
وقد اشار الدكتور احمد سوسة الذى ننقل عنه الى عشرات المصادر الاخرى
4) A. Grohmann, «The Arabs», the encyclopedia of Islam, New Ed. p. 525
(5) فى كتابه «العرب واليهود فى التاريخ» طبعة وزارة الاعلام العراقية 1972 .
(6) الدكتور محمد عزة دروزة « تاريخ الجنس العربى » ج 1 ص 26 .
(7) تاريخ مصر لبريستد والحضارة المصرية لفوستاف لوبون وتاريخ المدنية المصرية لفوستاف بيكى الخ .

المسمارى لغتهم الاشورية وينتهى حكم اشور القديمة فى نهاية مملكة بابل القديمة عام 1595 ق . م . وامتد العهد الاشورى الوسيط من 1595 الى 911 ق . م . والعهد الحديث من 911 الى 612 ق . م . (تكونت خلال هذه الفترة انبراطورية سامية ضمت مجموع الشرق الاوسط ومن ضمنه آسيا الصغرى وسواحل ايجة ومصر والخليج العربى وعيلام وقد سقطت نينوى عام 612 ق . م . وقد اهتم الاشوريون بالفنون الجميلة والادب وتركوا فى خزانة الكتب الواح الطين التى انشاها الملك اشور بانيال (669 — 626 ق . م .) الذى اخضع مصر كلها لحكمه ، وقد عثر على نحو 25 الف رقيم حضارى فى الحفائر حفظت فى المتحف البريطانى .

اما الكلدانيون (الاراميون) فيرجع اصلهم الى شواطىء الخليج العربى جنوبى العراق وقد اسسوا رابع انبراطورية سامية دامت 73 سنة بعد سقوط نينوي وسميت سلالة بابل الحادية عشرة وكان لهم ضلع فى تقوية علم الفلك وهم اول من جزأ الواحد الصحيح الى ستين وقسموا اليوم الى 24 ساعة والساعة الى ستين دقيقة والدقيقة الى ستين ثانية ووضعوا اول التقاويم الفلكية العالمية وعنهم اخذ فيثاغورس كما برعوا فى فن التطريز ورسم الصور عليه

واعظم ملوكهم بنو خننصر (605 — 562 ق . الذى قضى على مملكة يهوذا وسبى اليهود الى بابل وفى هذا العصر بالذات بدا التأثير العربى على بابل وما وراءها (8)

والكنعانيون العرب هم مخترعو الحروف الهجائية الالفبائية وعنهم نقلها الفينيقيون ثم اقتبسها من هؤلاء منذ منتصف القرن التاسع الميلادى الاغريقيون واللاتين وكتابات اللهجة الكنعانية القديمة هى حلقة الوصل بين الهيروغليفية (المكونة من خمسمائة صورة تكتب من الجهات الاربع) وبين المسمارية والابجدية السينائية وهذه الابجدية هى التى تفرعت عنها ابجديات منها الفينيقية والقرطاجية والبونية والليبية والارامية والنبطية والعبرية ويندرج الشمال الافريقى فى هذه المجموعة العربية لان اللغة البونية Langue punique هى اللهجة الدارجة الى اليوم فى المغرب العربى وقد عثر على رخامة فى البرازيل تحمل تاريخ 125 ق . م . اشار اليها الدكتور البرازيلى اديلونيتو وضمنها كتابه الانطروبولوجية (9) وهى مكتوبة باللغة البونية التى قورنت مع ترجمتها العربية فلوحظ انها لا تختلف عن لهجة تونس خاصة ودارجة افريقيا الشمالية عامة وعند ما دخل الموسويون ارض كنعان وجدوا قبيلة كنعانية يتزعمها نبى كنعانى يدعى بلعام ينشر فكرة التوحيد ويتمتع بمكانة روحية سامية (10) .

وقد الف مارينوس الصورى Marinus of Tyre كتابا فى الجغرافيا ووضع خارطة للعالم عام 120 للميلاد كانت تستند الى معلومات جغرافية فينيقية ويرى رولنسون (11) انه كان اول كاتب فى الجغرافيا اتخذ الطريقة العلمية الرياضية فى صنع الخرائط المستندة الى خطوط الطول والعرض وعليه ارتكز بطليموس :

وكان القرطاجيون مثل الفينقيين يتسمون بالكنعانيين (12) .

وآخر من هاجر من الجزيرة العربية الانباط وهم قبائل بدوية انتشرت منذ القرن السادس قبل الميلاد شرقى مملكة الاردن الحالية واقتبسوا من الاراميين ثقافتهم وتاثروا بلغتهم حتى غلبت الارامية عليهم ولهجتهم هى التى تطورت منها لغة القرآن كما ان خطهم هو خط كتبة الوحى وهو القلم النبطى المقتبس من القلم الارامى القديم .

وهكذا يمكن القول بأن الساميين عرب ولغتهم التى هى اللغة الام هى اللغة العربية والنصوص كلها

---

(8) راجع بحثنا « الفكر الصوفى واصوله » فى العدد الثالث من « اللسان العربى » (1385 هـ 1965 م)

(9) اشار اليها الاخ الاستاذ توفيق المدنى فى مجلة « تقويم المنصور » (العدد الثالث عام 1348 هـ) (راجع بحثنا فى مجلة اللسان العربى عدد 3 — 1384 ص — 1965 م

(10) الاصحاح 22

(11) Rawlinson - Phoenicia p. 404, 548

(12) Univ. Jewish Encyclopedia - vol. II p. 651

مجمعة على هذه الحقيقة ، اما العبرية فهى لهجة سامية متأخرة .

وقد تأكد من جهة اخرى ان اليهود هم بقايا يهوذا الذين نقلهم نبوختنصر الى بابل قبل الميلاد بستة قرون وقد تكلم الموسويون فى الاصل الهيروغليفية التى دونت بها شريعة موسى ووصاياه العشر لانها كانت لغة بلاط فرعون حيث تربى موسى ولم يعثر لحد الآن على اى اثر لهذه الشريعة الموسوية الاصيلة لان التوراة المتداولة اليوم ليست سوى ترجمة عبرية مشوهة مقتبسة من الارامية يرجع تاريخ هذه التوراة اليهودية التى لا علاقة لها بتوراة موسى الى عهد الاسر البابلى بعد ظهور موسى بثمانمائة سنة على ان يونس ارسل الى مائة الف او يزيدون من اهل نينوى فى القرن التاسع قبل الميلاد فكان ذلك انطلاقة اولى للموسوية فى ارض الاشوريين .

ويرى العالم اليهودى سيلفر (13) فى كتابه « موسى والتوراة الاصلية» ان التوراة الحالية لا تمثل توراة موسى وحتى الوصايا العشر التى يكاد يجمع العلماء انها الشىء الوحيد المتبقى من التوراة الاصلية لم يكن بكمالها وعلى هيئتها الحالية كالتى اتى بها موسى

وظاهرة التشويه فى هذه التوراة المزيفة اشتمالها على شرائع وتقاليد وطقوس دينية مقتبسة من الشرائع الكنعانية والبابلية وخاصة شريعة حمورابى كما ابرز ذلك البروفسور ووتر من استنادا الى تحقيقات اركيولوجية على ان مزامير داود نفسها مشوهة وكذلك كل ما ورد فى العهد القديم لغلبة الطابع الكنعانى العربى عليه حتى من حيث اللغة اذ لم تترجم الى العبرية مدرجة فى التوراة الا فى عصور لاحقة فاللغة العبرية لم تكن اذن من اصول اللهجات السامية بل ليست هى نفسها سوى اقتباس من الارامية حفظت لنا كثيرا من مظاهر الحضارة الكنعانية العربية .

وقد اكد الكاتب الفرنسى جان لوى برنار J. L. Bernard ان الاحبار عبرنوا كل ما اقتبسوه من تواريخ الاقطار التى جاسوا خلالها ومنها سليمان الذى لم يكن يهوديا وانما كان اشوريا وهو شلما نصر ولو كان سليمان يهوديا لاستحالت — كما يؤكد برنار — الصداقة مع ملكة سبأ العربية بل اكد بروكلمن ان هؤلاء اليهود قد تعمدوا اقصاء الكنعانيين من جدول انساب سام اى من السلالة السامية .

ويرى بعضهم ان اسم يهوة اله اليهود نفسه هو اسم احد آلهة البدو الشماليين فى جزيرة العرب وكان الكاهن الكنعانى ملك اورشليم يدين بالتوحيد كما كانت لغة داود وسليمان هى الكنعانية العربية التى اقتبسها الموسويون من بنى كنعان بعد دخولهم ارض فلسطين فكانت هذه المعطيات الكنعانية لغة وحضارة هى قوام التراث العربى وفى ضمنه التوراة الجديدة وقد سمى النبى اشعيا فى القرن الثامن قبل الميلاد اللغة كلها وفى ضمنها العبرية شفة كنعان اى لسان كنعان كما يقول مندنهول استاذ جامعة ميسيسفان الامريكية بنقل الدكتور سوسة على ان كلمة « عبرى » نفسها ومثلها « عبيرو » او « خبيرو » قد وردت فى الكتابات القديمة وكان يراد بالعبريين القبائل البدوية العربية وبذلك يوجه وصف ابراهيم الخليل فى التوراة بالعبرانى ويؤكد هذه الحقيقة ما ورد فى دائرة المعارف البريطانية (14) من ان استعمال كلمة عبرى بمعنى يهودى يرجع الى الحاخامين بفلسطين فى عهد متأخر على انه تم العثور على كتابة من عهد رعمسيس الثانى وهو فرعون الذى وقع الخروج Exode فى عهده سميت فيها بقايا الهكسوس بـ « العبريو » والمقصود هنا القبائل العربية البدوية وهى التسمية التى عرف بها الهكسوس عند المصريين واسرائيل نفسها كلمة كنعانية عربية اطلقت على موضع فى فلسطين واشارت اليها فى هذا السياق كتابات مصرية قبل بعثة سيدنا ارض فلسطين الكنعانية العربية هى مهجر لحفدة يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم اغتربوا اليها نازحين من حاران او حران الحالية .

وكثير من التعابير والاسماء التى يظن انها عبرية الاصل هى فى الحقيقة عربية نذكر منها على سبيل

---

(13) A. H. Silver «Moses and the original Torath N.V, 1961
وقد اشار الدكتور احمد سوسة ايضا الى مرجع آخر هو « الاسس التاريخية للعقيدة اليهودية » 1969 ص 8 .

(14) طبعة 1965 ج 11 ص 279

المثال فقط تسمية اورشليم (اى القدس) التى وردت فى الكتابات الكنعانية اى رسائل العمارنة فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد (اى قبل عصر موسى بنحو مائتى سنة) وقبل ظهور العبرية ومدوناتها ومنها توراة اليهود (لا توراة موسى) بأزيد من الف عام وقد ورد ذكرها عبر الشعر الجاهلى فى شكل اوريشلم كما اعترفت التوراة نفسها فى نص صريح بعدم وجود اية صلة بين اليهود وهذه المدينة (15)

و « موسى » اسم مصرى قديم لا صلة له بالعبرية ولا بالعبريين وقد ورد ذلك احد فراعنة مصر باسم « آح ــ موسى » وهو مؤسس السلالة الثانية عشرة (1580 ــ 1546 ق . م) كما ان الكاهن الاعلى لمدينة ممفيس عاصمة مصر المشهورة فى عهد تحوطمس الثالث (1479 ــ 1447 ق . م) كان يدعى « بتاح موسى » (16)

وننشر فيما يلى بعض النصوص التى تشهد بعروبة الساميين :

فقد اكد سبرنجر Sprenger ان جميع الساميين عرب (17) :

وقال الاستاذ اولمستيد فى كتابه « تاريخ فلسطين» (ص 36) : « ان البدو العرب كانوا اول من تكلم باللغة السامية واذا اردنا ان نتفهم الخصائص الاصلية لهذه المجموعة من اللغات السامية على حقيقتها فعلينا ان نتجه الى العربى ابن البادية السورية الذى يجوب شمال جزيرة العرب لان هؤلاء وحدهم حافظوا على العادات والتقاليد القديمة دون ان يطرأ عليها اى تغيير » وقد ايده المستشرق عبد الله فلبى فى كتابه «تاريخ العرب قبيل الاسلام» حيث قال : « ان اللغة العربية التى يعترف الخبراء فى كونها اقرب من جميع اللغات السامية الى اللغة الام الاصلية التى اشتقت منها جميع هذه اللغات هى على اغلب الاحتمالات اقدم لغة فى العالم ما زالت حية حتى يومنا هذا » .

وقد لاحظ الدكتور جواد على فى كتابه « المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام » (ج 1 ص 255) ان جماعة من المستشرقين ترى ان اللغة العربية على حداثة عهدها بالنسبة الى اللغات السامية الاخرى هى انسب اللغات السامية الباقية للدراسة لانها لغة لم تختلط كثيرا باللغات الاخرى فبقيت فى مواطنها المعزولة اصفى من غيرها محافظة على خواص السامية القديمة

وقال فيلبى فى كتابه « تاريخ العرب قبيل الاسلام » (الاسكندرية 1947 ص 9) : « اننى اعتبر بلاد العرب الجنوبية (ومن ضمنها اليمن) هى الوطن الاصلى لهذا الجنس من البشر المعروف الآن باسم الساميين وهو يمتاز عن سائر الشعوب بلغته المعروفة باسم اللغة العربية » ثم لاحظ انهم هاجروا بسبب الجفاف الذى ظهرت بوادره بعد العصر الباليوليثى وهو العصر الحجرى القديم الذى يبدأ قبل 35 الف سنة نحو الشمال الى اطراف الهلال الخصيب .

وايد الاستاذ فيلبى خبير انثروبولوجى آخر هو الدكتور هنرى فيلد ملاحظا « ان اليمن وعدن كانتا مأهولين بالسكان فى العصر النيولوثى (وهو العصر الحجرى الحديث المحدد بين 7000 و 5000 ق م) . هاجر منهم الى عمان والخليج وآخر الى الصومال وكينيا وتنجانيقا وفريق ثالث الى نجران وسيناء وفلسطين .

وقد لاحظ الرحالة الالمانى شوينفرت ان القمح والشعير والجاموس والمعز والضأن والماشية وجدت فى حالتها لابدة فى اليمن وبلاد العرب القديمة قبل ان تستانس فى مصر والعراق (18) .

---

(15) الدكتور احمد سوسة (مقدمة كتابه المذكور)

(16) ادولف ارمان « ديانة مصر القديمة » الترجمة العربية ص 29 ــ 314 (نقلا عن كتاب العرب واليهود فى التاريخ) « المقدمة »

(17) الدكتور على حسنى الخربوطى «العرب والحضارة » ص 13 .

(18) العقاد ــ « اثر العرب فى الحضارة الاوربية » القاهرة 1960 ص 11 .